العالم الذي يبنى على الخوف

زهير الجزائري: العوالم الكافكوية ورواية القهر السياسي

علي بدر

في العوالم الخيالية التي يرسمها زهير الجزائري في روايته الأخيرة (الخائف والخيف (المدى،2003) ثمة قدر كبير للمصائر التي تتصارع على خلفية الخوف والرعب التي يدفعها شخص مجهول، عالم من الخوف الكافكوي الغامض يسمح فيه الأبطال بحرية لقوى سوداء، حياة تنصهر وتنخرم تحت قساوة ساحة اعتباطية دون حدود، شخصيات منطرحة تتحرق للخلاص، رجال يعيشون خيباتهم بإذلال وقسوة، قوى ممزقة بزقة تبيد وتحرق سياسيون قساة، مثاليون يبدون، قوى عنيفة ربيبة فتنة ونسيه، مخذولات، شهوات مطفأة، وحشية وريبة ومجانية ظاهرة هنالك الخوف الناتج الذي يعاق بكل شيء بل ويرتسم في الخلفية بنداء سري وملغز.

في رواية الخائف والخيف يعتبر زهير الجزائري مفهوما سياسيا للخوف وهو يسرد ويحصي تتابع أحداث في الماضي، وإذ تذوب الحوارات في النسيج العام لسرد فإن السارد يعتبر معنى أنطولوجيا لكلام القمع والأحداث غير المترابطة والحكايات المبعثرة وهو يروي تشكل أمة ما، وفي حقبة سياسية معينة، فتصبح مهمة السارد إعادة نسج العالم الواقعي وتركيبه وتوزيعه داخل الحبكة، إن الغموض والسواد والإبهام والخوف والأحداث الزلزلة غير المتوقعة تنتمي إلى عالم فنتازي وتعبر عن رؤى ومواقف مرئية سياسية لتخييص الرواية بشكل عام من التوثيق التقليدي، ومن الإطار الإرشيفي والريبورتاجي، فأعاد السارد على نحو بارع نسج الأحداث السياسية الواقعية في العراق وكيفها في إطار فنتازي ومتخيل.

تنبثق العوالم الفنتازية في رواية الخائف والخيف من التناظر بين العوالم التمثيلية والتخييلية والإيحائية في الرواية التي يكتبها بطل الرواية وليد وبين الواقع الذي يرسمه الراوي في الحكاية المتخيلة والمتصورة ويتم استكشاف العالم الواقعي من خلال التناظر بين رواية الخائف والخيف التي كتبها زهير الجزائري وبين الوقائع السياسية والثقافية والسوسيولوجية في حقبة معقدة من تاريخ المجتمع العراقي، هذا التأليف المتشابك والمعقد في الحبكة، وفي النظام السردي، وفي تطور الأحداث، وفي بناء المكان، يتناظر مع عالم مأساوي متعدد الأقنعة ومتشعب الهويات ومتنوع الشخوص: وهابه الوزير، مجيد، وليد، ياسمين، الغفاري، قاسم فنجان، يعقوب عزيز، قادر، سليم، يوسف، سعيد مردان، جنود رجال حماية مدربون، شرطة سرية تتحرك على خلفية الأحداث، شيوعيون يقفون في السجون لمواجهة مصائرهم، إسلاميون يقومون بأعمال عنف نساء مرتعشات عاهرات في المواخير، وكر سرية، معسكرات وخنادق في الحرب، إنها رواية بتورامية بالمعنى الدقيق للكلمة، رواية دراسية محتدمة ومعقدة في الأحداث ومتداخلة في الأصوات السردية وفي مستويات الحكاية، رواية سايكولوجية تعتمد التحليل والنفاذ إلى عمق الشخصيات وذكرياتهم ومواقفهم وردود أفعالهم، حيث يرسم السارد هذه الأحداث التي تدور على نفسها من خلال بروز شخصية وهاب وهي الشخصية الكافكاوية بحق، والتي تحول كل شيء نفسه في الحياة من عدمية فردية إلى عدمية جماعية، وتختص بتقويض دعائم كل عنصر في الحياة الاجتماعية والسياسية للبلاد، بل تتحول هذه القوة العارمة إلى قوة عمياء تسحق الحقيقة والتاريخ والمعنى والذات والقيمة، وتلعب دوراً أساسياً في الاحتيال على السلطة والمجتمع وتقدم مفاهيم وتصورات هي لعبة في شباك علاقات متحدرة ومتقلبة يتم استخدامها وتوظيفها ببراعة وهي عبارة عن تمويهات أيديولوجية وتحويرات ومخادعات لاشعب.

إن رواية الخائف والخيف هي رواية تؤثر حقيقي، على مستوى البناء الدلالي وعلى مستوى البناء الشكلي أيضاً، فمن الناحية الدلالية يبرز الماضي عبر ثلاث أحداث مختلفة تستبني على قاعدة الخوف والرعب والعنفوان والجريمة المتقدة، فتجري أحداث الرواية بسرعة شديد وبإيقاع كثيف وتندرج الشخوص الروائية عبر صور وأفكار مبتورة ومقطعة، وتفرض هذه الوقائع المخيفة والإجرامية نفسها على صوت الرواية وعلى خطابها بالكلية فتدخل في عالم محموم من تهيآت متعددة ومتواجات داخلية متجاورة وصائر شخصية مجزأة، وعلى قدر كبير من الاتساق والانسجام فيما بينها، ثم تتوضح الأحداث شيئاً فشيئاً وهي تبرز من تاريخ مشوش ومن مصائر متنوعة، لترسم على الخلفية هذه الدينة التي تعيش في حاضر أسود، ومتسلط غائم، وهي تكشف الحياة القائمة المفجعة، المرتجة: احتضار الشخصيات الفنية، السخط البشري، الهستريا وصراع الإرادات، وهذا العنف الهائج الذي لا يكبح، إن السارد في الخائف والخيف مثل سارد ألدوس هكسلي في رواية هدوء الأعماق، يجعلنا نعيد القصة معه ونعيد بناءها على مراحل، وهذه هي الطريقة ذاتها التي نلجأ إليها حين نتذكر أحداثاً ماضية، فيتم كل شيء عبر سير جزئي لا عن طريق تسلسل كامل.

لقد انشغلت رواية الخائف والخيف بتمثيل عالمين: العالم الواقعي والعالم السردي، فهي من جهة تعمد إلى إخفاء السرد ليتوارى السارد وراء النص لصالح الحكاية، فتتقدم الأحداث دون وسيط سردي، بينما يظهر وليد بوصفه منتجاً للأحداث في الوقت الذي يكون فيه هو موضوع الأحداث وهو مبتكر الحكاية، ثمة مسافة تفصل المتلقي عن العالم الفني الذي يصطنعه السرد فتحدث فجوة بين المتلقي والأحداث، لأن الإيهام يتمزق بخوف وليد من واقعية الحكاية، غير أن هذا النوع من النصوص يسهم إسهاماً فعالاً بإجبار المتلقي على المشاركة بإنتاج عالم الرواية المتخيل.

تتراجع الحكاية في رواية الخائف والخيف لصالح نوع من السرد المفكك الذي يشبه انبناء العالم الذي توحي به وتمثله، ويتناقص الاحتفاء بالحكاية، ويهمل التدرج التتابع، على أن ذلك السرد قد تولد وتحددت وتأطره داخل منظومة خاصة من التواصل والتلقي، وهي إحدى وسائل التعبير التي تعتني بمجموعة من الحكايات التي لا تنفصل عن السرد الذي يشكلها، ويبقى السارد حاضراً ومتوسطاً بين الأحداث والوسيلة السردية، وفي أحيان أخرى يتوارى ويعتبر الرواة حيث يتعلق الوهم بواقعية الحكاية، غير أن السارد العليم ينجز ومنيفة مزدوجة، فهو يسرد حياة وليد الشخصية التي تكتب الرواية داخل رواية الخائف والخيف، وتشارك شخصيات الرواية التي يرويها سارد الخائف والخيف في أحداث رواية وليد، وهو من جهة أخرى يعرض تمثيلاً سردياً يكون وليد جزءاً منه، أي أن الشخصيات التي ينتقيها وليد لروايته هي موصفة من قبل رواية الخائف والخيف، وهكذا يتقدم عالم الرواية المهشم والمتكسر، والمفرق وسط عالم ممثل بانتظام شديد ومتقشف ومأساوي وكفيلي، حيث يتم الصمت فيه على درجة عالية من الدقة، وتأخذ المراقبة فيه والخوف حيز شخصية، فرواية الخائف والخيف متصلة بالعالم الذي يسكنه الصمت والخوف عبر التمثيل السردي، ومنفصلة عنه عبر التعبير الذاتي للمؤلف الذي ينتج نصاً متخيلاً، فوليد هو الذي يستحث القائد في نهاية الرواية إلى فصل الختام، فتصل أحداث الرواية إلى ذروتها ذروة صعودها وتوترها وقد اندفع القائد بكل قوته وجبروته ليبطش بالخيانة التي تدور حوله وبين القائد والشبيه تدور الحكاية بعنف وسرعة كبيرتين، فوليد الذي هجر من صناعة القائد الذي سيشبه كل القادة التاريخيين قبله، يسلم مصير الجميلين به إلى شكه وبطشه ودمويته، هذه الشرعية التي تؤسسها السلطة الكفرانية والمصادرة النصية التي يقيمها بطل الرواية بالتواطؤ مع كاتبها تكشف عن صورة بتورامية لتقنيات السلطة القمعية، فهنالك دقة في توصيف الفيلقة التاريخية والاجتماعية لسلطة ومكوناتها وهي علاقات وأدوات وسوط للصمت والتقنين وأدوات سياسية تعمل من خلال الجسم الاجتماعي، لقد أوصل زهير الجزائري روايته عبر بحث دقيق في تقنيات السلطة السياسية في العراق وآليات تشكلها التاريخية والاجتماعية والسياسية إلى عدمية السلطة وعبثيتها، وفي فقرة هي من أكثر فقرات الرواية براعة، حيث تصل الرواية ذروة صعودها من خلال تصوير نابض لمجزرة التي يقيمها القائد من حيث تلقفه، ودم ينز على الجيمان، تدور محاورة ديوجينية صغيرة بين وليد والقائد، يدرك القائد من خلالها الخواء الذي أحاط به حياته، والانسحاق المدمر الذي كان يعيشه، والغش الفظيع الذي تملكه، وبعثلان كل ما أحاط به.

تتصف رواية الخائف والخيف بسياق سردي يزخر بتقنيات الاسترجاع والاستحضار، وحالات القمع، والعودة إلى الوراء وإدراج حكايات ثانوية في سياق الحدث الإطاري، وإدراج معلومات سياسية وتاريخية واجتماعية في ثنايا السرد، ولا تخضع هذه الأحداث المتداخلة والمتشابكة إلى بنية إطارية تامة، ولم تخضع إلى نظام متسلسل ما خلا الحدث الإطاري العام الذي كان يشد الرواية ويرسم بخطوط واضحة هيكلها، فكانت الوقائع التخييلية والواقعية تتداخل فيما بينها بشكل متجانس تماماً، وقد قدم هذا النوع من السرد إلى السارد إمكانية هائلة في إثارة خفايا الشخصيات وتواريخها، ومذكراتها وحياتها الداخلية، ورسمت على الخلفية البنى التكوينية للمجتمع العراقي، وقد كيف هذا النوع من السرد منظورات الشخصيات، وبين على نحو واضح رؤيا نظرها ومواقعها وعلاقتها بالنسبة للعناصر الأخرى في النص.

لقد لعبت مستويات السرد المتعددة في رواية الخائف والخيف دوراً بالغ الأهمية في تنظيم البناء العام للرواية، ومن خلال نظرة إجمالية لتشكل الفني لهذه الرواية يمكننا أن نرصد ثلاثة منظورات سردية متداخلة بعمق فيها، تتناوب هذه المنظورات التي تحتكر السيطرة على البناء الفني العام للرواية، وتسهم إسهاماً فعالاً في تشكله، هنالك السارد العليم وهو راوٍ خارجي يهيمن على الهيكل أو الإطار الشامل للرواية، ويقود أحداثها، وينظم رؤيتها ومنظوراتها ويرتبط بمفهوم سياسي وإيديولوجي واضح وينظم جميع العناصر السردية المكونة للرواية: وصف الشخصيات وخفاياها ورصد حركاتها وأفعالها، تحديد الحركة الزمنية للرواية، تحديد فضاء الرواية من مكان وخفايات وأبنية ومدن، ومن داخل هذا المستوى تبرز رؤية وليد كاتب الرواية الذي يسهم في تقاطعه مع الأحداث المروية من قبل السارد العليم في تمثل رؤية سردية ومنظور ثالث، وتعبر عن رؤية ودرجة مشاركة هذه الشخصية بالأحداث وتقوم بتمثيل رؤية خاصة لعالمها ولعوالم الشخصيات الأخرى، ومن بين هذين المستويين المتداخلين تبرز رؤية سردية ثالثة، تتصل هذه الرؤية بإثارة حيوات وخفايات وتواريخ الشخصيات الثانوية، وهلب في حديثه عن نفسه، ياسمين وهي ثروي، وقائع حياتها، والشخصيات الأخرى التي إما تقدم نفسها بشكل مباشر عبر ديالوغات مباشرة مع الشخصيات الأخرى أو تقوم الشخصيات الأخرى بالحديث عنها، إن هذا المستوى يشكل عوالم الرواية برمتها، ويعتبر تنوعها وتراصها من الشخصيات الدينية إلى الشيوعية إلى العاهرات إلى المخبرين إلى الجنود إلى الشخصيات العادية التي تشكل البناء الأساس للحياة.

وفي النهاية، هل نحن أمام نوع جديد من الرواية، رواية يمكننا أن نطلق عليها رواية القهر السياسي، الرواية التي تحلل آليات وتقنيات السلطة، رواية مكتوبة في توصيف تكنولوجيا القمع السياسي في العراق؟ إن رواية الخائف والخيف هي رواية بحث سياسي وسوسيولوجي وسايكولوجي وتاريخي لعملية نشأة وتكون السلطة السياسية في العراق، وقد حدث على نحو بارع وفعال المخبر السياسي لعمليات التأديب التي تجريها السلطة والتي تقوم على فكرة الخوف، وهي آلية ميكانيكية تسمح بموضعة الأجساد في مكان، وتقوم بتنظيم وتسلسل القوة المركزية للسلطة وشبكاتها على نحو فعال، وتعتمد الخوف كتقنية يتم من خلالها إخضاع الأفراد والجماعات لشبكة معمارية من المراقبة، ومن ثم توجيه العاقبة لآراء انحرافاتهم وشذوذاتهم. إن زهير الجزائري في رواية الخائف والخيف مثل الروائي الإنكليزي هوثرن في رواية الشارة الحمراء، يكتب رواية تحتضر موضوعها وهو (السلطة) ويمثل بطل الرواية وليد عصراً بأكمله، فيرسم بنيته وأوهامه وشذوذ تفكيره العفن الذي يحيط بشخصياته، ومن عمق تأمله السارد للأحداث ومن عمق تعاطفه الحاد وشفقته الواضحة نحو بطله الدكتاتور يبرز هذا الحس الحذر والمتصلب وهو يشرح بلامبالاة غاضبة الحركة المدومة التي تحيط بالسلطة، فالسلطة نسبة لفعل ليست مأساة إنما هي إفلاس وخواء مشرق مثلث.

من الشعر الكوردي الحديث:

ولتفاحات الحرام.. رائحة

مهدي زيان

في أتون الانتظار..
كنت تأمين عودتي،
لأحمل إليك في حقائب السفر
عوالم، مأذى:
بسنابل القمح وحرير الأنهر المتمردة،
وإبتسامة الشمس وأنوار القمر
والنجوم.
كنا نعاهدنا..
أن نعلم الأطفال..
عزل السكين عن الزهور،
وأن لا يرتشفوا النوافذ الزجاجية،
ولا يعذبوا الفراشات..
ويعلقوا طيور الكناري من أسارها
****

إبنة حواء:
في (سه نكه سار) (1)
الفراشات لا تطير!!
كي تتدلى قامة الفلاب على السيف.
العصفور لا تطير،
هذا عصر حجري.
كيف نعلم أطفالنا:
أن لا يرتشفوا النوافذ الزجاجية
هذا عصر السكين.
كيف نعلم أطفالنا:
أن لا يلمعوا أعناق أفراخ الكناري.
أنظري:
العاهات،
مثل حلم أزرق لعناقر بالأسماء!
يذوب داخل أبخرة القدر،
ثم يتلاشى.
***

من يشعر بآلامنا؟!
نحن في رحلة العشق،
غيبتنا دهاليز الطريق!
أصبحنا قصة صلعة،
تحت ظل شجرة تفاح،
لم يقرأها أحد!!
إنه عصر ميلاد الشيطان،
وتحت جنح الملائكة الحريرية،
تمطر الدماء!!
أنظري: إلى الطرف الأقصى من الديار،
كيف تركم "مكة" مدينتك؟!
كيف أصبح الحياء:
يتعثر من رؤوس أحذية التاريخ
نحو الأغوار؟!!
****

برجاء..
تحدقين في السماء،
داخل رهج "درب التبانة" (2)
لم تجد تفسيراً لأحلامك؟!
منذ زمن:
وعيناك على قمم المرايا الهشة
للوجود.
تحت أبخرة أنفاس التعب،
غير فاتك النهارة،
لم ترى شيئاً آخر!
إبنة حواء:
أنتو حد تحسين بروح الوحدة لهذه
الزهور الجبلية.
لو مت!
فادفنيني في الصباح،
أخشى الوحدة كثيراً،
كنا نحيا على أحلام الفهر وأناشيد
المطر،
لكن جاذورة الجحيم،
سرقوا منا الأحلام.
وأحرقت أنامنا،
قبل أن نكتب شعراً!
إبنة حواء:
لو أردت رؤية عيون الأطفال الزرقة،
الذين لم يولدوا بعد إحرقي كتب
التاريخ القديمة!
لأنها مفوتة بغبار أيادي حراس
الجحيم،
وأجندة الأيام ضعيفاً في مهب العاصفة.
سالت دماء أمل مفولتنا،
لنعم القمع المهشمة لتلف الرايات،
لأنها تحمل انكسارات ملامحنا!
لنكسر هذه البيوض،
فالشيطان زرع فيها بذور الشهوة،
والفرقة.
الافت لي:
كيف تولد هذه الدينة تحت جنح
الحكمة؟
ودماء حضارة ومدن،
تهدر بسيف الخرافة،
قمرة.. قمرة!!

هوامش:
* القصيدة منشورة في مجلة (سه وته ف دق) التي تصدر عن مؤسسة (الشفق) الثقافية / كركوك- العدد: 5 التاريخ- آب 2003.
(1): سه نكه سار: لغة: بلاد الحجرة.
(2): درب التبانة: من المجرات الكونية.

ترجمة: عبد الستار زنكنه

محطات

دمشق

بلا إدراك... سام شيبرد

سيصدر قريباً عن دار (المدى) بدمشق كتاب: قصص عالمية معاصرة ترجمة فدوى فاضل ومما يتناوله الكتاب حياة وكتابات الأميركي سام شيبرد الذي كتب 45 مسرحية إضافة إلى مجموعة من القصص.
وكان شيبرد قد فاز بجوائز عدة منها جائزة أوبي عام 1979 منحت الجائزة عن 12 مسرحية. وفي عام 1984 فاز بجائزة الأوسكار، وفي نفس العام فاز بجائزة كان عن مسرحيته التلفزيونية "باريس، تكساس" وانتخب شيبرد عام 1986 لأكاديمية الأمريكية لفنون والآداب ويرى النقاد في أعمال شيبرد نفسيفساء رقيقة من الحوار. ويرى آخرون أنه يجمع بين أسوبي بيكيت وهنجواي معاً في إبداع نصوص سينمائية ومسرحية في ذات الوقت.

بغداد

جديد الشؤون الثقافية العامة إصدارات للإعداد الأول للمجلات و كتب جديدة

تستأنف دار الشؤون الثقافية العامة نشاطاتها من جديد على صعيد إصدار الكتب والمجلات وتستعد لإصدار العدد الأول من مجلات (الأقلام) و (التراث الشعبي) و (الثقافة الأجنبية) و (أدب) إضافة إلى إصدارها كتباً جديدة متنوعة في مجالات الشعر والقصة والنصوص الحرة وقد تغير اسم الموسوعة الصغيرة إلى (الموسوعة الثقافية) لتأخذ بعداً أشمل وأكثر انفتاحاً على التجارب الثقافية الحديثة وتطورها في العراق والعالم.

بغداد

التيارات الدينية في المركز الثقافي في السويسري

نظم المركز الثقافي السويسري يوم الأحد الماضي ندوة حول "التيارات الدينية في العراق" تناولت مجموعة من الالتباسات التي تكتنف هذا المجال، وقدمت في الأمسية ثلاث أوراق، حيث تحدث الدكتور حيدر سعيد عن "إشكالية الإصلاح الديني في الإسلام" فيما تناول الدكتور ناظم عودة "مقاربات نقدية في تاريخ الإصلاح الديني" فيما قدمت ورقة الباحث سرمد العاني "منطق التقديس السرية" متناولاً لأظاهرة احتكار المعرفة في الفكر الديني والاعتراضات التي تواجه المثقف حين يمارس قراءة أو نقداً لمقولات الدينية.
وتولى الشاعر عادل عبد الله مدير المركز طرح مقدمة للموضوع مذكراً بأنها المرة الثانية التي يخصص فيها المركز أمسية لهذا الموضوع نظراً لأهميته البالغة.
وحضر الندوة السيد شمايكر مدير مكتب الارتباط السويسري في بغداد.

القاهرة

ندوة عن عباس العقاد بمناسبة مرور 40 عاماً على رحيله

يقيم مركز سعد زغلول الثقافي بمصر يوم الأربعاء ندوة للاحتفال بمرور 40 عاماً على رحيل الأديب المصري عباس محمود العقاد، يشارك في الندوة عدد من الباحثين والنقاد منهم: د/ عبد العليم عبد الحفيظ ومحمد أبو الفوار، وعبد الحميد مدكور، الذين سيقدمون مساهمات حول فكر العقاد، وجهوده في الدراسات الإسلامية والنقدية، ودوره في مدرسة الديوان التي أسسها مع عبد الرحمن شكري، وعبد القادر المازني وستتخلل الندوة قراءات شعرية من قصائد العقاد.

حيفا

مجلة "مشارف" تصدر بحلة جديدة وتأخر توزيعها في عددها الـ 23

تعود المجلة الثقافية الفلسطينية الصادرة في حيفا، "مشارف"، في عدد جديد، زاخر بمختلف الفنون الأدبية النقدية الراقية، كما عهدها قراؤها. في هذا العدد، تستهل المجلة موادها، بوعدو لاء من هيئة التحرير المتزمة، بمناسبة إطلالة سنة جديدة على قرائها. يتمحور هذا الولاء بالتخصيص حول كل ما هو جاذب ومتزم من الموقف المتجلي بالكلمة، شعراً ونثراً. وتنفيذاً لهذا الرهان الجاد الذي تخوضه "مشارف" بكل ما أوتيت من فنون، تستقطب في هذا العدد الجديد، العديد من المحاور الرئيسية في مجالاتها، تختص لقرائها الزوايا التالية: شعر، نصوص، ثقافة عبرية، رؤى، شهادة، حوار وغياب.

المنامة

عدد مزدوج من مجلة أوان

صدر العدد المزدوج الثالث والرابع من مجلة أوان، وهي مجلة ثقافية دورية تصدر عن كلية الآداب بجامعة البحرين، وتعنى مجلة أوان بمراجعات الكتب وشؤون النشر عربياً وعالمياً.
ضم العدد الكثير من الدراسات والقراءات والمراجعات والحوارات حول محور "دريدا والتفكيك" وضم النص فصلاً ينشر لمرة الأولى بالعربية لكتاب الكراماتولوجي كمال دريدا.